فن الترسل
الأسبقية الغربية والإبداع العربي

The Art of Messaging between the Western Antecedence and the Arab Creativity

طالب دكتوراه/ محمد نذير الأشهب
الأستاذ الدكتور / حميد بوحبيب

قسم اللغة العربية وآدابها-جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله الجزائر

kaysouf@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/04/30 تاريخ القبول: 2020/11/11 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخص:

إن أدب كتابة الرسائل فن قديم عرفته الإنسانية كشكل من أشكال التعبير عن خلجات النفس وميدانا للإبداع الفني عن طريق النثر ، فيعتبر عند الغرب فنا ضاربا حتى العهد اليوناني باعتباره ارتبط بفن الخطابة ، وحذا بذلك الرومان حذو اليونان ونهلوا من علومهم وآدابهم فأرسلوا أبنائهم للتعلم على يد خطباء اليونان ،أما عند العرب فقد ازدهر خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين عندما بلغت الحضارة العربية و الفتوحات الإسلامية أوجها ، فالكاتب بذلك يَبين عن قدرته الفذة في الإقناع وإيصال المعنى المراد تبليغه بأسلوب يَليق بمتلقيه ، فكانت الرسائل حلقة الوصل بينه و بين العالم الخارجي.

الكلمات المفتاحية: الترسل؛ الاسبقية؛ الرسائل؛ التواصل؛ الأوامر.

The literature of writing letters is an ancient art that humanity has known as a form of expressing the souls' feelings and as a field of artistic creation through prose. So it is considered so important art for Westerners. Even the Greek era was associated with the art of rhetoric. The Romans took it from the Greeks as well as took from their sciences and their literatures. So they

sent their children to learn from Greek preachers. However among the Arabs, it flourished especially in the third and fourth centuries of *Hijrah* when the Arab civilization and the Islamic conquests reached its climax. Hence the writer shows his unique ability in persuading and conveying the message and in delivering it in a suitable style to its audience. The letters were the link between the writer and foreign world.

.Keywords: Messaging, Antecedence, Letters, Communication, Orders

مقدمة:

يعد فن الترسل من الفنون النثرية التي تُبيّن قدرة الكاتب على التحكم في ألفاظه بناءا على أفكار متسلسلة وعواطف صادقة مبنية على علاقات متداخلة قد تكون إخوانية يحكمها منطق القرابة أو الزمالة أو الصداقة أو الأخوة وقد تكون ديوانية مليئة بالأوامر والنواهي مُلغمة برسائل مبطنة قد لا يفهمها الكثير من غير ذوي الاختصاص أو رسائل حميمة تحمل في طياتها عواطف ومشاعر جياشة يستحيل فيها التبطين وتغلب عليها العفوية والمباشرة في اللوم والعتاب أو في إظهار مَواطن السعادة والحبور وفقا لما تقتضيه الحالة النفسية لكاتب الرسالة.

أولا): نماذج من فن الترسل في الآداب الأوربية .

يقال أن الحضارة الأوربية الحديثة قامت على حُطام الحضارة القديمة ، وبرز خلال حقب متتالية السعي إلى إحياء المثل والأمجاد القديمة وتجسيدها في الفن والأدب، وهذا ما اتسم به عصر النهضة في القرن الرابع عشر ومن بعده العصر الكلاسيكي في القرننين السابع عشر والثامن عشر ثم عصر التنوير ، ووصولا إلى العصر الحديث في الأدب عامة وفي فن الترسل خاصة وقد مر هذا الأخير بمراحل ازدهار جعلت منه قِبلة السياسيين والأدباء والعاشقين المتيَّمين وملاذا للحيارى والخائفين والمادحين بمختلف طبقاتهم الاجتماعية ومشاربهم الفكرية ، والتسلسل التاريخي لتطور فن الترسل انطلق بنا من العهد اليوناني مهد الحضارة الأوربية ومنبعها الصافي وصولا لمطلع القرن العشرين.

1- في الأدب اليوناني :

وتبدأ فترة الإبداع اليوناني من المرحلة الكلاسيكية بداية من القرن التاسع قبل الميلاد وظهرت خلالها ثلاثة أجناس متتالية : الأدب الملحمي فالأدب الغنائي فالأدب الدرامي ،ثم المرحلة الهيلينية التي بدأت "بوقوع اليونان تحت سيطرة مكدونيا 338 ق م واستيلاء الاسكندر المقدوني على الامبراطورية الفارسية (334-330 ق م) يبدأ عصرجديد في تاريخ الحضارة اليونانية القديمة"[1] ، ومما وجدنا في هذه المرحلة من رسائل ، رسائل الإسكندر المقدوني إلى أعدائه والرد عليهم بمثلها ، "هذا ولما عاد الإسكندر من أرمينية نزل على شاطئ نهر أسطوخوس فهدد بذلك دارا ملك الفرس وفي هذا الوقت أرسل إليه دارا الرسالة التالية:

من دارا إلى الإسكندر

من عاصمة ملوك العالم .ليعلم الإسكندر اللّص الخ....مادامت الشمس تشرق على رأسه ، أن مالك السماء قد وهب لي ملك الأرض ...وقد ترامى إلي أنك جمعت حولك طائفة من اللصوص وأراذل الخلق وأن كثرتهم قد أعجبتك وغَرتك فأردت أن تستعين بجمعهم ليكون لك تاج وعرش ولتخرب ملكنا وتدمر أرضنا وتهلك شعبنا.

والآن يجدر بك بعد أن تقرأ هذه الرسالة أن تغادر من فورك ....أما الحركة الإجرامية التي أقدمت عليها فلا تخش من أجلها بطشنا وعقابنا .

ولما وصلت هذه الرسالة إلى يد الإسكندر أمر بالقبض على حاملها وقطع رؤوسهم وكتب إلى دارا الرسالة التالية :

من الإسكندر إلى دارا

من ذي القرنين إلى من يدّعي أنه ملك الملوك ، وأن جيوش السماء نفسها ترهبه ، ...ألا يعلم دارا أن الله العلى الأعلى يهب العزة والسلطان لمن يشاء ...وكيف يدّعي الألوهية إنسان قدر عليه الموت والفناء ...ألا فاعلم أني عقدت النية على لقائك في ميدان القتال ، وهأنذا سائر إلى

بلادك مقر بأنى خادم الله ضعيف ذليل أتضرع إليه وأستغفره وأمجده...ولست أعتمد في هذا كله إلا على الله وحده والسلام"[2]

2 - في الأدب الروماني :

"في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، عندما أصبح الأدب الكلاسيكي مرحلة من مراحل الماضي بالنسبة إلى اليونانيين وبلغ الأدب الهيليني ذروة أزدهاره ،شرع تطور في القسم الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط ، في إيطاليا

أدب ثان من آداب المجتمع القديم هو الأدب الروماني .وهي مركز المجتمعات اللاتينية البدائية وقائدة الوحدة الايطالية أدبها الموازي للأدب اليوناني ،وكانت اللغة اللاتينية لغة ذلك الأدب ،...غير أن الرومان كانوا ،منذ البداية ،يختارون ما يقلدونه اختيارا يتناسب مع حاجاتهم الايديولوجية وتقاليدهم الحضارية ويكيفونه مع خصائصهم ويطورونه بما يتفق وميزاتهم التاريخية"[3] وأشهر خطباء الرومان شيشرون الذي كانت له رسائل شهيرة،"نشر تيرو سكرتير شيشرون ستة عشر كتابا من الرسائل بعنوان إلى الأقارب وتغطي ستة عشر كتابا آخر بعنوان إلى تيكوس السنوات من 68-44 ق م وقد رأى كورنيليوس نيبوس في هذه الرسائل قيمة تاريخية كبرى "[4]منها ما كتبها إلى صديق له يدعى تيتس يمبونيس أتكس وهو رجل روماني من رجال الأعمال ذو ميول أدبية وذلك في : 14 إبريل سنة 49 ق م يظهر له ولائه لبمبي غَريم قيصر الذي كان شيشرون يُظهر له ولاءا مزيفا ، وعندما علم قيصر بهذه الرسالة بعد ثلاثة أيام فقط من إرسالها ! بعث برسالة لشيشرون كان فحواها: في الطريق إلى أسبانيا –في 16 إبريل {49 ق م }

"قيصر الإمبراطور يحيّ شيشرون الإمبراطور

إني أعرف أنك لا تُقدم على عمل خال من الحكمة ينقصه العقل والروية ، ولكن إشاعات وصلت إلى علمي لم يطمئن لها خاطري ، فرأيت أن الواجب يقتضي أن أكتب إليك لأسألك بحق ما بيننا من ود متبادل ألا تتخذ لك الآن ،وقد أصبح الحظ حليفي ،...فالحظ كله الآن في

جانبنا والخسارة كلها في جانبهم ،...ستجد ألاَّ أسلم ولا أشرف لك من أن تنفض يدك من كل تدخل جدي في النزاع القائم بيننا "[5].

3- في الأدب الفرنسي :

لقد كانت للحروب التي خاضها الفرنسيون الأثر البارز في التاريخ الأوربي لِما خَلَّفته حملات نابوليون من أثر مادي ومعنوي من خلال اصطحابه الأدباء والشعراء والكتاب في حملاته العسكرية

و "يقال أن نابليون بونابرت كتب أو أملى مابين خمس وخمسون وخمسة وسبعين ألف رسالة حُرق الكثير منها في روسيا ، ولكن واحد وأربعون ألفاً منها طُبعت فعلا ولا تزال الأيام تكشف كل يوم عن رسائل جديدة.

وأشهرها ما بَعثها إلى جوزيفين ، ولم تنقطع رسائله إليها رغم أخطار الحرب وشئون الحكم وقال فيها((بحب سلب عقلي فلا أستطيع الأكل ولا النوم ولا العناية بالأصدقاء ولا الاهتمام بالمجد وحتى النصر نفسه لا أقدره إلا لأنه يدخل السرور عليك...لقد ملأت قلبي حبا لا حد له...))

ومن هذه الرسائل ما بعثه نابوليون لجوزيفين بعد هجر طويل مذ عرفها سنة 1795.

كميني في 21 إبريل 1810. حبيبتي.

تلقيتُ رسالتكِ المؤرخة 19 إبريل ، وهي رسالة رديئة الأسلوب .إنني سأظل على الدوام كما كنت فإن من كان مثلي لا يتغير ، ولست أعرف ماذا قالت لك يوجين. إني لم أكتب إليك قبل هذا لأنك لم تكتبي إلي ولأني لا أحب لك إلا ما تحبين لنفسك...ولقد سرني أن أعرف أنك ستذهبين إلى ملميزن وأنك راضية ويسعدني أن أعرف أخبارك وأن أرسل إليك أخباري ولن أقول أكثر من هذا حتى تفاضلي بين رسالتي هذه وبين رسالتك وسأترك لك بعد هذه المفاضلة أن تحكمي أينا خير من الآخر وأصدق مودة أنا أو أنت.

وداعا يا حبيبتي.لا تبتئسي وكوني منصفة لنفسك ولي . نابليون "[6]

4- في الأدب الانجليزي:

من أهم الرسائل التي ظهرت في الأدب الإنجليزي في القرن الثامن عشر ، ما كتبته السيدة ماري ورتلي مونتاجو باللغة الأنجليزية التي لها رسائل معروفة جدا ، وكانت هذه السيدة فطنة ظريفة مثقفة وجميلة ، وقد كتبت رسائل من تركيا حيث كانت مع زوجها الممثل لملك أنجلترا،جورج الأول، هناك. وفي هذه الرسائل تصف أحداثا في تركيا،كما تشير إلى أنها اكتشفت طريقة لمنع الاصابة بالجدري.ولقد جربت ذلك على ابنها،وأدخلت تلك الطريقة إلى انجلترا .ثم كتبت بعد ذلك رسائل من ايطاليا .وكل هذه الرسائل تكشف عن حكمتها ومعرفتها وتفكيرها الجيد.

"وكذلك كتب الإيرل الرابع لمنطقة كسترفيلد رسائل إلى إبنه. وهذا الإيرل مشهور بصفة رئيسية لكتابته هذه الرسائل المصاغة في نثر فاخر،والمشتملة على النصائح الحكيمة ، ولو أن هذه الرسائل لم تكن دائما مراعية لاصول الاخلاق .فلقد حاول الايرل أن يخبر إبنه عن الاشياء الناجحة في الحياة.

ونجد أيضا رسائل أخرى جيدة اللغة كتبها هوراس والبول ،إلا أن الشخصيات فيها ليست دائما جذابة.وفي عام 1740 ظهرت رواية في شكل رسائل باللغة الانجليزية وهي ((باميلا)) لكاتبها صامويل ريتشاردسون، حيث توالت رسائله مع تسلسل الأحداث ،وتفاعلت معة سيدات العصر وأصبحن يراسلن الكاتب ويترجينه أن لا يميت البطلة في رسائله"[7].

ثانيا:) نماذج من فن الترسل في الأدب العربي.

1- في عصر صدر الإسلام :

كان لزاما على الخلفاء الراشدين من بعد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أن يواكبوا تطور بناء صرح الدولة وإرساء دعائم الحكم ،ليضمنوا التواصل بينهم وبين عمالهم أولا وبين سائر الأقطار ثانيا، و"باتساع رقعة الدولة الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وباشتغاله بشؤون الدولة العامة وسياستها العليا ،كان أول عمل صنعه أن فصل قضاء المدينة عن سلطته وأقام أبا الدرداء عليه وخصه بإسم القاضي ، ولما كثرت المنازعات بين

الأفراد بالبصرة والكوفة جعل قضاء الكوفة لشريح وقضاء البصرة لأبي موسى الأشعري وقضاء مصر إلى قيس بن أبي العاص"[8].

وكتب رسالة رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء لما ولي عليه في البصرة بالعراق واعتبرها الأدباء قطعة نادرة وخالدة من أدب القضاء على مر الزمان وفيها:

((بسم الله الرحمن الرحيم))

(من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ،سلام عليك ، أما بعد ، فإن القضاءَ فريضةٌ مُحكَمة وسنّة متّبعة ، فافهم إذا أُدلي إليك وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع تكلّم بحق لانفاذ له . وآسِ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمعَ شريفٌ في حيفك ، ولا ييأَسَ ضعيف من عدلك. البيّنة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهُديت فيه إلى رشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهمَ الفهمَ فيما تلجلجَ في صدرك مما ليس في كتابٍ ولا سُنّة . ثم اعرفْ الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمدْ إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعلْ لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجهت القضاء عليه ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عُدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد، أو مجرّباً عليه شهادة زور أو ظنينا في ولاءٍ أو نسب ، فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات والأيمان. وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر. فمن صحتْ نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلّق للناس بما يعلم الله ، منه خلاف ذلك ، هتك الله ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنّك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام)[9].

2- في العصرين الأموي والعباسي :

لقد كان لمعاوية بن أبي سفيان الفضل في انشاء ديوان للرسائل ،وتلاه من بعده من الخلفاء الأمويين ومن بعدهم العباسيين باختيار من يقومون عليه من ذوي البلاغة والبيان، وظلوا طوال القرن الأول يحرصون على جودة الكتابة والعناية بالرسائل وختمها والقيام عليها ، وزاد ازدهار النثر الفني عند العرب في أواسط القرن الثالث للهجرة النبوية ثم في القرن الرابع باتساع رقعة الدولة الإسلامية لِما شهدته من فتوحات ، والحاجة إلى الإقناع والتراسل بين المسلمين وغيرهم من الأجناس الأخرى فكانت الخُطب والرسائل السِّمة الأبرز في هذا العهد "ويذكر الباقلاني أن الناس في عصره –القرن الرابع الهجري- كانوا يميزون بين طرق كتابة الرسائل وأساليبها ،إذ كان لكل كاتب طريقته الخاصة ، بل إنهم يميزون بين طريقة القدماء و طريقة المحدثين ،فكأن قضية الصراع بين القديم والجديد في الشعر إنتقلت إلى ميدان النثر "[10] ، يقول: "ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل ابن العميد ،وبين رسائل أهل عصره ، ومن بعده ممن برع في صنعة الرسائل وتقدم في شأوها ،حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين ،وطريقة المتأخرين ،حتى خلص لنفسه طريقة ، وأنشأ لنفسه منهجا فسلك تارة طريقة الجاحظ، وتارة طريقة السجع ،وتارة طريقة الأصل ،وبرع في ذلك باقداره ،وتقدم بحذقه ،ولكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقة من طرق غيره ،وإن كان قد يشتبه البعض ، ويدق القليل ، وتغمض الأطراف ، وتشذ النواحي"[11] .

ويقول جرجي زيدان: "إن الحضارة قد تمكنت من أسلوب الترسل في هذا العصر،فكان عبد الحميد الكاتب وابن المقفع إمَامَا الإنشاء في العصر العباسي الأول والجاحظ في العصر الثاني ثم من بعدهم ابن العميد ،فصار الإنشاء في هذا العصر له طريقة اتخذها أهل العصور التالية نموذجا نسجوا على منواله فنضج الترسل العربي في هذا العصر وصارت له شروط يجب على كل مترسل التقيد بها منها السجع واستعمال المحسنات البديعية والخيال الشعري وتضمين الرسائل بالأمثال والنكت الأدبية والاستشهاد بالأشعار وتمخض عن ذلك ظهور نمط خاص للرسائل كرسائل أبي بكر الخوارزمي وأبي منصور الثعالبي وقُسِّمت الرسائل إلى رسائل التهنئة والتعزية والمديح والرثاء والإخوانيات والسلطانيات ونحوها،فصار الإنشاء فنا له ألفاظ خاصة سموها الألفاظ الكتابية وتولدت فيه مصطلحات خاصة لأساليبه وعباراته ،كالتسجيع

والترصيع والتبديل والمكافأة والاستعارة والتتميم والتقسيم والإرداف والتمثيل والتكرير وغيرها"[12]

3- فن الترسل بالأندلس:

مما عُرف على النثر الفني عموما وعلى فن الرسالة خصوصا بالأندلس هو اعتمادهم طريقة عبد الحميد الكاتب التي تميل إلى التحميدات والتكلُّف في الصنعة اللفظية ، فكانت كتاباتهم وخطبهم ورسائلهم في الفترة الواقعة مابين القرن الثاني والثالث الهجريين تمتاز بكثرة المحسنات البديعية والتحميدات والتبريكات ،ويقول ابن عبد الغفور الكلاعي في رسائل هذا العصر : "والإكثار من الدعاء في الرسائل من أبهر الدلائل على ضعف البضاعة في هذه الصناعة"[13] ، ولاننكر في هذه الفترة أن أروع الرسائل وأجودها قد ظهر في الأندلس ،فكانت الرسائل الديوانية ذات بلاغة عالية ودلالات واضحة يتداولها الأمراء فيما بينهم مولون أهمية قصوى للمبنى والمضمون في آن واحد ،فكانت الرسائل الأندلسية قطعة مزخرفة من اللغة المنتقاة والأدعية والتحميدات المشرحة لقلب المتلقي لها ، فالنتائج المرجوة من الرسالة منوطة بمحتواها ومدى قدرة المرسل اللغوية والإبداعية في الإقناع والقبول .

ويقول .د. إحسان عباس: " أن الرسائل الأندلسية مرت بمرحلتين: الأولى ، وسيطرت عليها الرسائل الديوانية حيث كان الأمراء يتنافسون في جلب الكتاب الفصحاء ، لترصيع رسائلهم بمختلف الأساليب البلاغية واللغة الراقية الموجزة، وكان المنصور بن أبي عامر يتشدد في النص على جودة الخط حتى لقد أصدر عهدا يوبخ فيه العمال لاستكتابهم الجهلة الذين لم يبلغوا أن يحكموا الخط، ومن أشهر كتاب هذا العصر يوسف بن سليمان الكاتب والرازي وأبو عبد الله محمد بن عبد الرؤوف البليغ المترسِّل ،وتدل الكتابة الرسمية في هذه المرحلة على تفضيل الإيجاز والقصد في التعبير وإيثار المعنى وأصحاب التوقيعات المقتضبة هم المشهود لهم بالبلاغة منها الرسالة المقتضبة التي أملاها عبد الرحمن الأول إلى سليمان بن الأعرابي ((أما بعد فدعني من معاريض المعاذير والتعسف عن جادة الطريق ،لتمدنَّ يداً إلى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة أو لألقين بنانها على رضف المعصية نكالاً بما قدمت يداك ،وما الله بظَلاَّم للعبيد)).

أما المرحلة الثانية فتشغل عهد الدولة العامرية وفترة الفتنة وفيها ظهر أكابر الكتاب الناثرين ومنهم:

ابن برد الأكبر وعبد الملك بن إ دريس الجزيري وابن دراج القسطلي وابن شهيد وابنا حزم والحناط وابن حيان المؤرخ وابن زيدون ،وتمتاز هذه المرحلة عن سابقتها بمميزات كثيرة منها :تغيير النموذج المشرقي وأصبحت طريقة سهل بن هارون والجاحظ أولا ثم طريقة بديع الزمان ثانيا هما النموذجين الأعلى للمنشئين بالأندلس .

وأكبر مايميز الكتابة في هذه المرحلة تمييز أصولها وطرائقها وأساليبها ، وهذا راجع إلى قوة حركة النقد ومنهم ابن حزم الذي كان ذا نظر ثاقب في نقد الأساليب وتمييز المذاهب النثرية".[14]

4- في الأدب العربي الحديث :

لقد رأينا أنه من الواجب أن نعطي لمحة موجزة على النثر في العصر الحديث وما إعتراه من تغيير وتجديد وتقليد كان نتيجة لظهور مدارس أدبية تدافع كل واحدة منها على أطروحاتها وأفكارها معللة آرائها بما تراه مناسبا لتوجهها، فظهرت المدرسة المحافظة التي رفع لوائها الشيخ ناصيف اليازجي الذي كان همّه بعث اللغة والمحافظة على الأسلوب القديم وإتباع الأساليب التي ظهرت بالعهد العباسي من جودة اللغة وحسن الصياغة والصنعة.

أما مدرسة التجديد فقد بدأت مع أحمد فارس الشدياق كما يقول حنا الفاخوري ،والذي تبنى المعاني والأساليب الجديدة في الأدب من تجوله في الآفاق عامة وفي البلاد الأوربية خاصة وراح يعالج الكتابة الصحفية بأسلوب جديد وحديث ثم تبِعَه في مدرسته هذه محررو الصحف من أمثال خليل خوري صاحب (حديقة الأخبار) وسليم البستاني صاحب (الجنان)،وأصحاب المقتطف والهلال والمترجمون الذين نقلوا آثار الغربيين أوإقتبسوا منهم الأساليب ،وكان جبران خليل جبران كغيره من أدباء المهجر متحررا متبعا الأساليب الفنية العالمية من إيجاز ودقة في المعاني بعبارات سهلة خالية من الزينة و السجع متخذا التجديد منهجا له .

وأما مدرسة الاعتدال فمن أركانها الشيخ محمد عبده والشيخ إبراهيم اليازجي،وقد جمعا بين القديم والحديث مركزين على الأسلوب الصحيح والتفكير السليم ليواكب أفكار الحاضر.

ويختصر حنا الفاخوري ما كان عليه النثر في العصر الحديث بقوله :"نزع النثر في هذا العهد نزعات مختلفة منها النزعة الأدبية في الترسل والقصص والأبحاث مع الشيخين ناصيف اليازجي وإبنه إبراهيم ومع أحمد فارس الشدياق وجرجي زيدان وسليمان البستاني وأضرابهم،ومنها النزعة الإجتماعية في إصلاح مفاسد المجتمع ،وتحرير المرأة ،وتعليم الأحداث ، مع قاسم أمين وجبران خليل جبران ومصطفي المنفلوطي ، وولي الدين يكن وغيرهم ؛ ومنها النزعة السياسية في تحرير البلاد ومعالجة القضايا الوطنية مع أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول ومنها النزعة العلمية مع يعقوب صرُّوف ومن حذا حذوه"[15].

وفي ظل هذه النهضة الأدبية والفكرية لاحت بوادر ازدهار الأدب العربي شعرا ونثرا لِما شهدته من بعثات نحو أوربا وما طرأ على الأفكار والأساليب من تغيّر ، فكان فن الترسل كغيره من الفنون منتشيا بهذه النهضة التي أمدّت بإشعاعها على جميع الأقطار العربية فاتخذ مثقَّفوه على الخصوص من الترسل منهجا جديدا في التواصل الأدبي والاجتماعي ، فظهرت رسائل مصطفى صادق الرافعي ورسائل البشير الإبراهيمي ورسائل جبران خليل جبران ومي زيادة وغيرهم من الأدباء والمفكرين .

ومن أروع الرسائل في القرن العشرين رسالة الشيخ البشير الإبراهيمي من إقامته الجبرية بآفلو في أفريل 1940 ، والتي بعث بها إلى أحمد توفيق المدني يعزيه فيها بوفاة العلامة عبد الحميد بن باديس .

هذا نصها:

" الأخ الأستاذ أحمد توفيق المدني حفظه الله ، أخي :

أعتقد أن الراحل أخي العزيز لم يكن لأحد دون أحد، بل كان كالشمس لجميع الناس ، وأعتقد أن فقده لا يحزن قريبا دون بعيد ، وأن أوفر الناس حظاً من الأسى لهذا الخطب هم أعرف الناس بقيمة الفقيد وبقيمة الخسارة بفقده للعلم والإسلام لا للجزائر وحدها.

فلهذا بعثتُ أعزيكم على فقد ذلك البحر الذي غاض ، بعد أن فاض ، ببقاء آثاره في الحياض وأنهاره في الرياض ،كما يعزى على مغيب الشمس بشفقها وعن ذبول غضارة الشباب

ببقاء رونقها وإن كانت التعازي تعاليل ، لا تطفئ الغليل ، ولكنها على كل حال تحمل بعض الروح من كبد تتلظى شجناً ، إلى كبد تتنزى حزنا .

وظنّي في أخي أنه لو كان يعرف عنواني لكان أول معزٍّ لأول مُعزَّى .

واحسرتاهّ ! رحم الله الراحل العزيز ، جزاء ما بثّ من علم وزرع من خير ، وثقَّف من نفوس، ولله ذلك اللسان الجريء،وذلك الجنان المشعّ، وذلك الرأي الملهم ، وإنّا لفقدك يا عبد الحميد لمحزونون"[16].

أخوكم الحزين الإبراهيمي

الخاتمة

فن الترسل فن ضارب في القِدم،استعمله العظماء وقادة الحروب إما لترهيب أعدائهم أو لإخطار عمَّالهم بما وصلوا إليه من إنجازات أو هزائم ،وهو تأريخ للشعوب والأمم وشاهد على دواليب التاريخ والحقائق المبهمة.

فالرسائل هي مرجع لكثير من الأحداث الأدبية والتاريخية فرُب رسالة ارتقت بصاحبها عاليا ورُب رسالة أخرى هوت به في مزابل التاريخ ، واسم الرسالة يدل على هدفها ، فهي التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، وهي التي عزلت الولاة من مناصبهم ونصَّبت غيرهم ، وهي التي أبكت وأضحكت ،وهي التي بعثت الأمل في الحائرين وهي التي أدخلت الناس في دين الله أفواجا، فمن يعتقد أن الرسائل قد أكل عليها الدهر وشرب فهو خاطئ فالرسائل لا تُختصَر في الورق بل في رسائل الهاتف الجوال والبريد الإلكتروني ومواقع التواصل الإجتماعي .

فمادام هنالك قلب ينبض وعقل يفكر فهنالك رسائل نبعث بها جميعا سواء أكانت سلبية أم إيجابية نخدم بها ديننا ومجتمعنا وأخلاقنا أو العكس .

الهوامش:

[1] فؤاد المرعي "المدخل إلى الآداب الأوربية" منشورات جامعة حلب كلية الآداب مديرية الكتاب والمطبوعات سوريا ط2 1981 ص62.

[2] محمد بدران محمد بدران "أشهر الرسائل العالمية ". ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة مصر ج 1 1946،ص5-7

[3] فؤاد المرعي مرجع سابق ص65-66.

[4] أحمد عثمان مجلة عالم المعرفة الأدب اللاتيني ودوره الحضاري الكويت العدد 141 سبتمبر 1989 ص 148.

[5] محمد بدران مرجع سابق ج1 ص13-14.

[6] محمد بدران مرجع سابق ج 2 ص13.

[7] ينظر:ج ثورنلي و ج روبرتس تعريب أحمد الشويخات الأدب الانجليزي من البدايات في القرن السابع إلى ثمانينيات القرن العشرين دار المريخ للنشر السعودية 1990 .ص125-127.

[8] معاذ السرطاوي . دراسات في الأدب العربي ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان الأردن ط1، 1988 ص 93.

[9] الجاحظ،البيان والتبيين ج2 ص48 ذُكر من قِبل ، داوود غطاشة الشوابكة و د مصطفى محمد الفار .دراسات أدبية نقدية في الفنون النثرية دار الفكر الأردن عمان. 2009 ط1 . ص46 -47

[10] مصطفى البشير قط جامعة المسيلة "مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم" ديوان المطبوعات الجامعية 2010 ص 118-119.

[11] إعجاز القرآن : للباقلاني،1/216-217.ذُكر من قِبل مصطفى البشير قط مرجع سابق ص 119.

[12] ينظر جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية دت دط دار الهلال مصر ج 2 ص268-271.

[13] ابن عبد الغفور الكلاعي - أحكام صنعة الكلام- ص72 ذُكر من قِبل د.مصطفى عليان عبد الرحيم . النقد الادبي في الاندلس في القرن الخامس الهجري ط1 .1984. ص40.

[14] ينظر إحسان عباس . تاريخ الأدب الأندلسي .. دار الثقافة .بيروت لبنان ط2 .1969. ص325-330.

[15] حنا الفاخوري ،الجامع في تاريخ الأدب العربي،الأدب الحديث ،دار الجيل بيروت لبنان ط1، 1986 ص23.

[16] أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ، ،ش و للنشر والتوزيع ، الجزائر ج 2 ،1977،ذكرت من قِبل أحمد طالب الإبراهيمي ،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان ، ج2 ،ط1 1997 ص 37.

قائمة المصادر والمراجع:

1- فؤاد المرعي "المدخل إلى الآداب الأوربية" منشورات جامعة حلب كلية الآداب مديرية الكتاب والمطبوعات سوريا ط2 1981 .

2- محمد بدران محمد بدران "أشهر الرسائل العالمية ". ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة مصر ج 1 1946

3- أحمد عثمان مجلة عالم المعرفة الأدب اللاتيني ودوره الحضاري الكويت العدد 141 سبتمبر 1989 .

4- ج ثورنلي و ج روبرتس تعريب أحمد الشويخات الأدب الانجليزي من البدايات في القرن السابع إلى ثمانينيات القرن العشرين دار المريخ للنشر السعودية 1990 .

5- معاذ السرطاوي . دراسات في الأدب العربي ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان الأردن ط1، 1988.

6- الجاحظ،البيان والتبيين ج2 ذُكر من قِبل ، داوود غطاشة الشوابكة و د مصطفى محمد الفار.دراسات أدبية نقدية في الفنون النثرية دار الفكر الأردن عمان. 2009 ط1 .

7- مصطفى البشير قط جامعة المسيلة "مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم" ديوان المطبوعات الجامعية 2010 .

8- إعجاز القرآن : للباقلاني،دار المعارف مصر 1971 .

جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية دت دط دار الهلال مصر ج 2 .

9- ابن عبد الغفور الكلاعي - أحكام صنعة الكلام- ذُكر من قِبل د.مصطفى عليان عبد الرحيم . النقد الادبي في الاندلس في القرن الخامس الهجري ط1 .1984.

10- إحسان عباس . تاريخ الأدب الأندلسي .. دار الثقافة .بيروت لبنان ط2 .1969.

11- حنا الفاخوري ،الجامع في تاريخ الأدب العربي،الأدب الحديث ،دار الجيل بيروت لبنان ط1، 1986.

12- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ، ،ش و للنشر والتوزيع ، الجزائر ج 2 ،1977

13- أحمد طالب الإبراهيمي ،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان ، ج2 ،ط1 1997.